الإمـــام محمـــد عبـــده

(١٨٤٩-١٩٠٥م=١٢٦٦-١٣٢٣هـ)

أفتى بعزل الخديوي وانضم إلى الثوار

obeikandl.com

وسط الظلمة الحالكة التي عاشها العالم العربى والإسلامي في القرن التاسع عشر، برزت أسماء مضيئة بعقول متفتحة وبصائر نافذة نغبطهم عليها نحن أبناء القرن الحادى والعشرين. ففى تلك الأيام الصعبة ظهرت أسماء عظيمة في فضاء العالم الإسلامي، منها «جمال الدين الأفغانى»، و«عبد الرحمن الكواكبى»، و«محمد عبده» وبعدهم «محمد رشيد رضا» وغيره.

أنار الشيخ «محمد عبده» كرائد عظيم للإصلاح الديني والاجتماعي. الطريق أمام دعاة الإصلاح للسير قدما نحو استعادة المجد الضائع للحضارة الإسلامية. وكشف الإمام للناس عن كثير من وسائل النهضة وسبل التقدم، فرفع راية الجهاد ضد مظاهر التخلف، ودعا الشباب إلى نبذ أسباب الجمود والأخذ بأسباب التقدم، وسار يناهض سطوة الحكام الإنجليز ويزيل ظلام الغشاوة من عيون الناس، ليقاوموا الفساد. ويطردوا عن أنفسهم عوامل اليأس والقنوط، اللذين أصاباهم بسبب الاحتلال الأجنبي البغيض لأرض «الكنانة» الذى أدى إلى تخلفهم عن اللحاق بالركب الحضارى العالمى الناهض.

وأدرك «محمد عبده»، ببصيرته النافذة أنه لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. فالدين هو أساس الإصلاح في كل زمان ومكان، فشرع في تطوير الأزهر، مناهجه ومدارسه وراح يعقد الحلقات التعليمية ليوضح للناس مراد الله من خلقه. وأخذ يكتب المقالات التنويرية في الصحف، ليرقى بعقول الناس ويعلو بثقافاتهم. وكان له في كل وظيفة تقلدها أو عمل تولاه بصمات تجديدية واضحة، غايتها نبذ التقليد العقيم السائد وتحقيق الإصلاح الدينى والاجتماعي والفكرى.

ولم يكن الطريق الذي سلكه «محمد عبده» لتحقيق الإصلاح مفروشاً بالورود. بل كان مليئا بالأشواك مرصوفا بالوعورة.

وهو الذى وصفه مستشرق أمريكي فقال: «كان محمد عبده فلاحاً صميماً. وليد تربة مصر العريقة، قبل أن يغدو فقيهاً وإماماً للمسلمين، وإننا لنلمح فيه إخلاصه

لبلده وفي دعوته إلى الوطنية مزاجاً عجيباً من الوفاء للماضي المجيد، والاستمساك بيقين الدين».

كان شخصية منفتحة على العالم، وهذا ما جعل البعض يعترض عليه قائلا: «ما هذا الشيخ الذي يتكلم الفرنسية، ويسيح في بلاد الإفرنج، ويترجم مؤلفاتهم، وينقل عن فلاسفتهم، ويباحث علماءهم، ويفتى بما لم يقل به أحد من المتقدمين؟».

نشأة مثابرة:

كانت حياة الإمام مثل شخصيته خصبة، حافلة صنعها بقلبه، وقالبه، فكان يطالع ويتعلم، ويحرر جريدة الوقائع المصرية، ويُلهم الثورة العرابية وينشر دعوة العروة الوثقى في العالم الإسلامي كله، ويشتغل بالقضاء، في المحاكم ويُعلم في الأزهر، ويُصدر الفتاوى المستنيرة، ويشترك في جلسات مجلس شورى القوانين. وفي مجلس الأوقاف الأعلى، ويؤلف الرسائل الدينية، وينشر المقالات السياسية والفلسفية، ويُفسر القرآن من خلال رؤيته الثاقبة، التي ترى أن إصلاح الأمة لا يكون إلا بإصلاح عقول وقلوب أبنائها.

وُلدَ الشيخ «محمد عبده» عام ١٨٤٩م ، ١٢٦٦ هـ. في قرية «محلة نصر» في محافظة البحيرة، لأسرة متوسطة الحال تعمل في الزراعة، وتوسم أبوه فيه ذكاء ونبوغاً، فأراد أن يجعله من رجال الدين، فأدخله كتاب القرية ليحفظ القرآن الكريم. وجاوز العاشرة من عمره، وأتم حفظ القرآن الكريم. وذهب إلى الجامع الأحمدى في طنطا، ليتم تجويد القرآن ودراسة قواعد اللغة العربية، لكن منهج التعليم في الجامع الأحمدى،كان شاقا على الصبى الصغير، الذى كاد يعتريه اليأس، ففكر في أن يعود إلى قريته ويشتغل مثل إخوته في الزراعة لولا أن التقى أحد أخوال أبيه، الذي أعاد إليه ثقته بنفسه، وقد وصف الإمام الأثر الذى تركه فيه قريبه ذاك، وكان يدعى الشيخ «درويش» فقال: «تفرقت عنى جميع الهموم، ولم يبق إلا هم واحد، هو أن أكون كامل المعرفة، كامل أدب النفس، ولم أجد إماما يرشدنى إلى ما وجهت إليه

نفسي، سوى ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة»(*).

وانتقل الشيخ إلى الدراسة في الجامع الأزهر، عام ١٨٦٦م وحصل منه على شهادة العالمية عام ١٨٧٧م فأصبح من حقه التدريس في الأزهر، وراح يلقي دروساً في التوحيد والمنطق والأخلاق، إلى أن عُين مدرساً للتاريخ الإسلامي في مدرسة دار العلوم، «كلية دار العلوم» حاليا وعُين في الوقت ذاته مدرساً للغة العربية في مدرسة «الألسن».

التقاؤه الأفغاني:

مرت «بمحمد عبده» خلال دراسته الأزهرية، ظروف نفسية جعلته ينقطع عن الدرس والتحصيل، ويحاول اعتزال العالم، وأخذ يمارس ضروب الزهد والخلوة مع النفس، إلى أن وفد إلى مصر عام ١٨٧١ «الإمام الثائر» «جمال الدين الأفغاني»، وكانت شهرته قد سبقته، كداعية للتحرر من الاستعمار الأجنبي ووحدة الأمة الإسلامية، ومجدداً للفكر الديني معلياً من شأن العقل. فصار الشيخ «محمد عبده» من أقرب تلاميذه إليه، وأقدرهم على فهمه. فلما صدر قرار إبعاد جمال الدين الأفغاني عن مصر للمرة الأولى. قال يوم وداعه لبعض خاصته: «لقد تركت لكم محمد عبده وكفى به لمصر عالماً».

وبدأ «الشيخ محمد عبده» يكتب في صحيفة الأهرام، معبراً عن أفكاره، متأثراً بأفكار أستاذه «جمال الدين الأفغاني»، وكان مما كتبه عام ١٨٧٧م مقال بعنوان: «العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية». جاء فيه: «فعلينا أن ننظر إلى أحوال جيراننا من الملل «الشعوب» والدول، وما الذي نقلهم من حالهم الأول، وأدى بهم إلى أن صاروا أغنياء أقوياء، حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم، إن لم

(*) السيد يوسف، «الإمام محمد عبده رائد الاجتهاد والتجديد في العصر الحديث»، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص١٣.

نقل قد تسلطوا بالفعل. فإذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع إليه، حتى نتدارك ما فات وها نحن بعد النظر، لا نجد سببا لترقيهم في الثورة والقوة إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم، حتى قادتهم إلى رشادهم، فإذن أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا».

ومضى الشيخ في كتاباته إلى جانب عمله في التدريس إلى أن تولى الخديوى توفيق عرش مصر، فشعر بخطر أفكار الأفغانى وتلميذه محمد عبده، على عهده وحكمه، فعزل محمد عبده من التدريس في دار العلوم عام ١٨٧٩م وحدد إقامته في قريته، وبعد عام من تحديد إقامته صدر عنه العفو.

الصحافى الثائر:

أراد رياض باشا إصلاح جريدة الوقائع المصرية وتطويرها، وكانت لسان الحكومة الرسمى، فعين «الشيخ محمد عبده» محرراً فيها، ثم جعله رئيساً لتحريرها، وسار الشيخ في تحرير الصحيفة سيرة إصلاحية حقيقية، فانضم إليها الزعيم سعد زغلول وغيره من كبار المصلحين، المثقفين المستنيرين الذين يحلمون بوطن متطور، يتمسك بأصول الدين من دون قشوره داعين إلى التقدم العلمي، من دون تقليد الظواهر المادية الغربية البراقة.

ثم قامت الثورة المصرية بقيادة الضابط «أحمد عرابى»، فسارع «الشيخ محمد عبده» بتأييدها ومناصرتها بعزيمة وإخلاص، تحقيقا لحرية الشعب المصرى واستقلاله في الداخل والخارج.

وبعد أن تدخل الإنجليز وتم القضاء على ثورة الجيش بقيادة «أحمد عرابى»؛ وُجِّهت إلى «الشيخ محمد عبده» تهمة التأمر مع الثوار، فحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر، ثم بالنفى ثلاث سنوات لأنه أفتى بعزل «الخديوى توفيق»، فاختار الإقامة في سوريا، رحل إليها عام ١٨٨٣م فرحب به أهلها، وأعجبوا بعلمه وفضله، فأقام هناك فترة فاغتنموا إقامته بينهم وعهدوا إليه بالتدريس في بعض مدارسهم.

في المنافي:

ومن سوريا إلى باريس، مستهل العام ١٨٨٤م، ليلتقى أستاذه وصديقه «جمال الدين الأفغاني»، وكانا قد تواعدا على اللقاء هناك، لينشئا معاً جريدة «العروة الوثقى» فكانت بذلك أول جريدة تصدر بالعربية في أوروب، وكان مكتبها في باريس ندوة لجميع الشرقيين، من المقيمين والزائرين ولكنها لم تعمر طويلاً، حيث طوردت من الاستعمار البريطاني والسلطات الحاكمة في البلاد الإسلامية المحتلة، وإن كانت قد تركت صداها لدى المسلمين كافة، لما حملته من أفكار متحررة تناقض ما هو مستقر في أذهان البعض.

وسافر «محمد عبده» عام ١٨٨٥م إلى بيروت، وعُهد إليه بالتدريس في المدرسة السلطانية فألقى فيها دروسه المشهورة «في علم الكلام»، وهى الدروس التي كانت ركيزته الأساسية لرسالة كتبها بعنوان «رسالة التوحيد» عن صفات وأفعال الله سبحانه وتعالى. ويبدو أن نشاط الشيخ في بيروت لم يكن على هوى الخلافة العثمانية فسعى «السلطان عبد الحميد» لدى الحكومة البريطانية إلى إصدار العفو عن «الشيخ محمد عبده»، ليعود إلى وطنه مصر، وعاد «محمد عبده» إلى مصر عام ١٨٨٨م، حيث عُين قاضيا في المحاكم الشرعية، وعمل في محاكم بنها والمنصورة، والقاهرة، وعُين عام ١٨٩٥م نائبا لرئيس محكمة الاستئناف في القاهرة. وقد عُرف أثناء عمله في القضاء باستقلال الفكر، وكان يتوخى في أحكامه إيقاظ الوعى وإصلاح ذات البين وديا بين المتقاضين قبل أن يصدر أحكامه.

المفتى:

عُين «الإمام محمد عبده»، سنة ١٨٩٩م مفتياً للديار المصرية، وامتازت فتاواه بالبعد عن التقليد، وكان يضع أمام ناظريه دائماً، الملاءمة بين روح الإسلام، ومطالب العصر، وكان من أشهر الفتاوى لتى أثارت عليه سخط الشيوخ المتزمتين، وجلبت عليه ضروبا من القدح والتشهير: إباحته للمسلمين أن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضرورة القصوى.

وأفتى بالسماح للمسلمين بأن يتزيوا بزى غير زيهم التقليدى. تيسيرا لهم في أمور معاشهم.

كما أصدر فتواه التي اعتبرت تجديدا مهما في الفقه، وهى الفتوى الخاصة بصحة «نظام التوفير في البريد بالأرباح»، وصحة نظام التأمين، وهو ما ساعد على تأسيس النهضة الأولى للاقتصاد المصرى، عن طريق الادخار الاجتماعي، واستثمار المدخرات لمصلحة المجتمع. وبضرورة تعلم لغات الأمم الأخرى طلباً للعلم والحكمة، وتجنبا للشرور الوافدة أو الثابتة.

وعُين «الشيخ محمد عبده»، يوم الخامس والعشرين من شهر يونيو «حزيران» سنة ١٨٩٩م، عضواً في مجلس شورى القوانين، فسار على نهجه الخاص في السمو عن الأغراض الخاصة، واستهداف المصالح القومية الكبرى، كما كان من أوائل مؤسسى «الجمعية الخيرية الإسلامية» التى كانت تهدف إلى التعاون بين الأفراد ومد يد العون للمحتاجين. وتوفير فرص العمل للقادرين عليه. ويرجع إليه الفضل في إنشاء مدرسة القضاء الشرعى، وتأسيس جمعية «إحياء الكتب العربية القديمة».

ونشر وزير خارجية فرنسا «جبريل هانوتو» مقالا في صحيفة «لوجورنال» الباريسية، سنة ١٩٠٠. بعنوان موقفنا من الإسلام والمسألة الإسلامية، فلما تُرجم المقال ونشر في صحيفة، المؤيد، بادر الإمام إلى الرد مفنداً ما زعمه «هانوتو» من فوارق بين المسيحية والإسلام، في ما يتصل بالخالق سبحانه، وحقيقة القضاء والقدر وحرية الأفعال، ورفض ما زعمه «هانوتو» من قيام التعارض بين الساميين والآريين ولامه في النهاية، لاستخدام معلوماته التاريخية المغلوطة في محاولة التأثير في أفكار الفرنسيين الذى يجهلون حقيقة الإسلام.

وقد اشتهر هذا الرد، كما اشتهر رده على «فرح أنطون»، الذى نشر مقالا عن الفيلسوف «ابن رشد» ورد في سياقه تعريض بالإسلام والمسلمين، وقد نشر الإمام رده هذا في كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية» والذى لازال يطبع حتى اليوم.

وكان الإمام «محمد عبده» يردد دائما مقولته الشهيرة: «إنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه» وكانت هذه المقولة شعاراً حياته، التي أفناها في خدمة وطنه ودينه فتعرض لحملات ظالمة رموه فيها بمخالفة العرف، والخروج على طاعة السلطان.

بهذه الروح الثائرة وضع لجريدة «الوقائع المصرية» التي رأس تحريرها ميثاق شرف يقضي بإلزام الصحف جميعاً بالوقوف عند حدود الوقار في ما تكتب، مع إطلاق الحرية لها، في تبيين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب من دون خوف.

عطف الذئب على الحمل:

وحمل في مقالاته على الرشوة والمحسوبية، والإسراف والتفاخر بالمظاهر، وشدد على ترك البدع الضالة لمنافاتها الشرع والعقل، ونادى بوجوب إبطالها وتطهير الإسلام منها. ولم ينس الاستعمار وأذنابه، فكتب يقول: «لا عار على أمة قليلة العدد ضعيفة القوة، إذا تغلبت عليها أمة أشد منها قوة وقهرتها بقوة السلاح، وإنما العار الذى لا يمحوه الدهر، هو أن تسعى الأمة أو أحد رجالها، أو طائفة منهم إلى تمكين أيدى العدو من نواصيهم، إما غفلة عن شؤونهم، أو رغبة في نفع وقتى».

وزار بريطانيا عام ١٨٨٤م، وقال لمندوب جريدة بريطانية قابلة: «إننا نرى أن انتصاركم للحرية إنما هو انتصار لما فيه مصلحتكم، وأن عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل، لقد قضيتم على عناصر الخير فينا، لكى يكون لكم من ذلك حجة للبقاء في بلادنا».

وكان الإمام يرى أن الخطوة الأولى في كل مسعى فلسفى هي تنبيه الوجدان، وإيقاظ الضمير وإثارة روح النقد تمهيداً للفهم. ولذلك وجدناه في جميع أقواله ومؤلفاته دائبا على مهاجمة «التقليد» أي تقبل آراء الغير من دون المطالبة بالدليل، ومن أجل هذا كان يشيد دائما بمبدأ، الاجتهاد الذى يحافظ علي أصول العقيدة، مع الأخذ بظروف الزمان والمكان وهما متغيران.

وكان يقول: «إن الإنسان يكون حراً عندما يكون خالصا من رق الأغيار، عبداً

للحق وحده، وفي الحق علينا أن نهتدى في حاضرنا بتجارب السلف، ولكن ليس من واجبنا أن نقبل جميع ما يؤثر عنهم. بل ينبغى أن نستعمل الفكر في موروثاتنا. فإن وجدناها صحيحة. قبلناها، وزكيناها. وإلا رفضناها غير آسفين»(*).

ويقول منتقداً القائلين بنظرية الجبريين الذين يحيلون كل شيء في حياتهم إلى القضاء والقدر المحتوم: «إن الله لم يأمرنا بأن نهمل واجباتنا بحجة التوكل عليه، فإن مثل هذا لمن سخف الرأى، ولا يمكن أن يحتج به إلا قوم لا أخلاق لهم ولا دين». ثم يقول: «إن جزءاً من أعمالنا منسوب إلى الإرادة. وذلك ما يسمى «الكسب» وهو مناط الثواب والعقاب».

وكان يرى أن «المشرك هو من يُعظِم سُوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر الإنسان عليه، مثل الاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التي هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله»

على أن التوكل الصحيح لا يعنى شيئاً آخر في رأيه سوى: «الثقة بالله، مع استعمال الأسباب الطبيعية، من أجل غايات ترسمها عقولنا».

تفسيره القرآن الكريم:

ووضع تفسيره القرآن الكريم، من خلال دروسه فى علم التفسير في الأزهر الشريف، والذى أكمله من بعده تلميذه السورى الشيخ محمد رشيد رضا، وأصدره فيما عُرف بتفسير «المنار» واعتمد فيه «على إعمال العقل في النص» والاعتماد على التأويل والقياس. لتقريب المعنى من أصول الفكر العقلى، وحدد الإمام «محمد عبده» طبيعة الإسلام الصحيح الذى يجب أن يتمسك به المسلمون بقوله: «ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين

(*) د. إسماعيل إبراهيم، «شخصيات صنعت التاريخ في البطولة والفداء والنهضة الفكرية»، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص١٧٤.

على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وضبطه، وأنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثا على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل».

وكان يرى أن إصلاح المسلمين عن طريق الفهم الواعى لدينهم، أسهل وأجدى من إصلاحهم عن طريق الأخذ بأساليب المدنية الأوربية في رؤيتها الاجتماعية التى لا تتوافق معنا، مع إعلاء شأن العقل والعلم في حياة المسلم، والاستفادة بما وصلت إليه الثقافة والحضارة والعلم من ابتكار وتجديد وإصلاح.

وفاة الإمام:

شرع الإمام سنة ١٩٠٥م في نشر الدعوة لإنشاء جامعة مصرية، تقوم إلى جانب الجامعة الأزهرية، لكنه لم يعش حتى يحقق ما دعا إليه، حيث وافاه الأجل في الإسكندرية في ١١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥م= ٨ جمادي الأولى ١٣٢٣هـ، وهو في أوج نشاطه وعطائه. وكانت وفاته حداداً عاماً في البلاد العربية والإسلامية جميعاً. وتوفى الإمام ولم يعقب ذرية يبقى بها اسمه، ولكنه خلف آثار فكرية يخلد بها ذكره.

مؤلفات الإمام(*)

المؤلفات التي تركها الإمام «محمد عبده» قليلة قلة سنوات تدريسه، لكنها جليلة الأثر وهى:

- تفسير القرآن الكريم.

- مجموعة فتاوى حوالى ألف فتوى.

(*) د. كمال الدين عبد الغنى المرسى، «الإمام محمد عبده وأثره في تجديد الفقه والفكر الإسلامى»، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م. ص٤٧.

- رسالة الواردات.
- ترجمة الرد على الدهريين لجمال الدين الأفغانى.
- شرح مقامات بديع الزمان الهمزانى.
- شرح نهج البلاغة للإمام علي بن أبى طالب كرم الله وجهه.
- شرح البصائر النصيرية لابن رسلان.
- رسالة التوحيد.
- الرد على هانوتو.
- الرد على فرح أنطون.
- رحلة صقلية.
- نظام التربية والتعليم في مصر.
- رسائل وكتابات مختلفة.

تضامن مع تولستوى:

كما كتب رسالة تحية للكاتب الروسى «تولستوى» بعد أن حكمت عليه الكنيسة التابع لها بالحرمان، يقول في نهايتها: «وإن أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصح والإرشاد، هذا هو الذى سماه الغافلون الحرمان والإبعاد. فليس ما حصل لك من رؤساء الدين، سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس بأنك لست من القوم الضالين، فاحمد الله على أن فارقوك في أقوالهم، كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم»(*).

(*) د. عثمان أمين، « رائد الفكر المصرى الإمام محمد عبده »، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٦، ص٢٦٥.